# أمبرتو إيكو

## «معلّم نقتدي به، صديق نقدّمه»

## بقلم باولو فابري (Paolo Fabbri)

### ١. مقابلة فريدة: نظريّة وكتابة

في كتابةٍ تعود إلى العام ١٩٩٢، قبل عام على المقابلة الأولى الواردة في هذا الكتاب، أشار إيكو إلى عدم الوثوق بالمقابلات. كان يعرف تمامًا أنها تتصل في غالب الأحيان بأحداث سياسيّة أو بمناسبات ثقافيّة أو باستحقاقات نشريّة، كصدور كتب جديدة ينبغي إطلاقها وتسويقها. كان يعرف قبل كلّ شيء أن صيت كاتب، ذاعت شهرته (بعد صدور الرواية «اسم الوردة» وإخراج الفيلم المستوحى منها)، يبسّط ويشوّه أحيانًا سمات مَن هو كاتب وفيلسوف وسيميائيّ وناشر وصحافي في آن.

أكتفي هنا بذكر دراسته الجماليّات في جامعة طورينو (مع فاتيمو) التي قادته إلى كتابة «العمل المفتوح» (١٩٦٢)، ثمّ إلى نظريّة العلامات وإلى الكتابة الروائيّة. عمل بوتيرة متناسقة حول: الجدليّة بين التقليد والتجديد، الانفتاح النصّي وانغلاقه، المشار إليها بعناوين الأعمال التأمليّة العديدة: «العمل المفتوح، البنية الغائبة» (١٩٦٨)، «أشكال المضمون» (١٩٧١)، «كانط وخلد الماء» (١٩٩٧)، «أن نقول الشيء نفسه تقريبًا» (٢٠٠٣)، «من الشجرة إلى المتاهة» (٢٠٠٧)، وإلى ما هنالك من أعمال.

يشير هذا الكتاب، الذي يجمع مرحلة طويلة من المقابلات باللغة الفرنسيّة، إلى مقاربات جديدة، ويضيف تركيبات وتعقيدات إلى هذا الكاتب التعدّدي الاختصاصات. تتعرّض هذه المقابلات، لطابعها الظرفيّ والارتجاليّ، إلى التكرار والتناقض والهفوات، لكنّها تلتقط غالبًا الإشارة. فنبرة الحوار المثقّف والساخر، الذي يجري بفضوليّة واعتناء، يسمح بالارتجال، الذي يتفوّق به إيكو، وبالمفاجأة، أي بانتظار غير المتوقّع. فالردّ في الحوار، الذي فيه تَجعَلُ الإجاباتُ الأسئلةَ ذكيّةً والعكس بالعكس، يُبعد العقائد ويدعو إلى تأمّل متمفصل وموزّع.

أقترح إذًا قراءة هذا الكتاب بوصفه مقابلة كبيرة وحيدة، يجيب فيها إيكو على جوق من الأصوات متزامن حول المضامين الغالية على قلبه. يبرع في الإجابات التي تنطوي على معرفة موسوعيّة مفاجئة على الدوام. يتحدّث في الدرجة الأولى عن العلاقة، ما بعد الحداثيّة، بين النشاط التأمّليّ وذاك الروائيّ. فمؤلّف «اسم الوردة» (١٩٨٠) و«مبحث في السيمائيّة العامّة» (١٩٧٥)، يطلب من القصّ تقديم الأجوبة التي تعجز النظريّة عن تقديمها (مثلًا الوجدانيّة). لكن إيكو، في معالجاته الفلسفيّة، يستعين أيضًا بخبرات تروي الفكر، كما فعل في «حدود التأويل» (١٩٩٠). تطرح رواية «بودولينو» (٢٠٠٠) الخياليّة والغماريّة، السؤال عن الكذبة وعن الخدعة الأدبيّة، بنكهة جويسيّة. في حين يتساءل كتابه المفضّل «بندول فوكو» (١٩٨٨)، بنكهة جويسيّة، عن طبيعة الزائف وفاعليّة التزييف. تطرح الرواية السؤال على

شفير الإجابة، وتقدّم النظريّة الأجوبة على شفير أسئلة جديدة. أما شغف إيكو بجيرار دي نرفال، الذي ترجم له رواية «سيلفي» (١٩٩٩)، فيعود إلى هذه «الكتابة التي لا تنزع السحر».

**٢. علامات وزيف ومؤامرات**

أراد إيكو أن يموت فيلسوفًا، على خطى عمالقة أمثال أرسطو وتوما الأكويني وجان لوك وبيرس. لقد عاد، في الواقع، في ختام مسيرته الفكريّة والأكاديميّة، إلى طرح مسائل الحقيقة والواقع، التي حلّها باستعارة «الحافر الصلب». وحول الاستفهام الجماليّ، في كتبٍ مثل «تاريخ القبح» (٢٠٠٧)، يصل إلى الاستنتاج أن التمييز بين الجميل والقبيح، بعد نقد القرن العشرين، بات متعذّرًا: «أصبح القبيح اليوم إيجابيًّا، والاحتفال بالشذوذ بائنًا». أما «تاريخ الجمال» (٢٠٠٤) فيختتم في الواقع راجيًا ديمقراطيّة جماليّة تعدّد فيها نماذج الحياة.

وفي أي حال، يبقى صيتُ إيكو، والسمةُ المتّصلة بصورته مفكّرًا، صيتَ السيميائيّ والمعالج اللغوي ومفكّك العلامات. وعلى الرغم من أزمة إنضباطيّة معيّنة، تبقى السيمائيّة، المادةُ الشاقّة، كما تُردِّد رثاءاتُه، المادّةَ التي حمل لواءها وآمن بانتشارها، أي بفارق المردود الذي توفّره نسبة إلى مواد إنسانيّة أخرى. فالعلامة تبقى، بالنسبة إلى إيكو، جاذبة التواصل وسهمَ توجيهه. كانت العلامة، بالنسبة إلى أغوسطينوس، «شيئًا يستحضر في عقل الآخرين ذاك الموجود في رأسي». لكنها، بالنسبة إلى إيكو، «وُجِدَت لتكذب»، وهي السمة الأبرز والأكثر إنتاجيّة في فكر مؤلّف «السيمائيّة والفلسفة» (١٩٨٤)، وكتاب «الرقم صفر» (٢٠١٥). فسيمائيّة إيكو مادّة تنويريّة، تنظر إلى

الصحيح من وجهة نظر الزائف والسرّي، من وجهة نظر الكذبة والمؤامرة. وكلّما كان السريّ قويًّا كان فارغًا، وبصورة خاصّة الزيف، المعرفيّ والسياسيّ والدينيّ إلخ، محرّك التاريخ، من حيث هو مسرح الأوهام. لذلك، يؤكّد إيكو أنه في المكتبة الشاسعة ليس هناك مؤلّفين مثل فرويد وداروين، بل مبتكرين لسيميائيّات زائفة، نصوص غيبيّة وخيميائيّين ينتظرون قراءة جديدة كان مجمِّعًا مثقَّفًا لها. فسيميائيّته هي علم الشكّ المتواصل والتقصّي البوليسيّ المثبت بإتقان. مسار تنازعي، حرب تتظاهر فيها العلامات الزائفة أنها الحقيقيّة، وتتظاهر فيها الحقيقيّة أنها زائفة. البراهين مُلامةٌ وملوّثة، والاثباتات المنكَرة ينبغي إنكارها. حتى أن الصمت طويل. أما أدوات مهنة من يتقصّى الصلات الراوية للسببيّة فهي الجنون الخاصّ والمؤامرات الجماعيّة.

بيّن إيكو وصوّر، على خطى بوبر، أن ادعاء تفسير ظاهرة اجتماعيّة يكمن في اكتشاف أناس أو مجموعات مهتمّة بإثبات هكذا ظاهرة (اهتمام خفيّ يُكشف أوّلاً) وقد صمّموا وأقسموا على تسويقها. إن تواطؤات المجتمعات السرّية وهرميّاتها خياليّة، ألهمت إيكو بحبكات الروايات كما جرى في «مقبرة براغ» (٢٠١٠) التي تصوّر «وثائق صهيون» الشائنة، التي حرّرتها الشرطة الروسيّة السرّية مطلع القرن العشرين. وعلى الرغم من أنه فُضِحَ منذ العشرينيّات، يبقى هذا التقرير الزائف عن مشروع عبريّ للسيطرة الكونيّة منتشرًا والإيمان به قائمًا. يستخلص إيكو الاستنتاج البديهيّ أن السبب، ما لم نقل الدافع، ليس الخمول المعرفيّ أو غباء المتلقّين، بل نهج المصالح المعروفة والتي ما زالت قائمة.

### ٣. جذمور وتسامح

في خلال المحادثات مع محاورين من مختلف الفضوليّات والكفاءات، تعود نوتة غالبة، صلبة مثل الدوّاسة في الموسيقى: التسامح. ترك إيكو تدريجًا، في تطوّر تفكرّه السيميائيّ، تمثيله للثقافة على أنها هرميّة قوانين، شجرة أنساب متفرّعة، ليرسو عند صورة موسوعة من المعارف تنمو على شكل متاهة الواحدة فوق الأخرى، مثل دغل أو جذمور. إن عدم التسامح، بالنسبة إلى إيكو، وتشهد على ذلك الجدالات اللاهوتيّة المتعلّقة بـ«اسم الوردة»، هو نفي الآخر باسم مبادئ شموليّة وفكرة متصلّبة عن الحقيقة. يحدث للجميع أحيانًا، أن يكونوا «متكلّمين صادقين عن الكذبة»، لكن الأمور لا تسير لهذا السبب. فالتسامح يتطلّب فضاءً مشتركًا تظهر فيه الاختلافات والمشاحنات وتُصاغ بصورة سيميائيّة، بين أفراد مزوّدين بآراء مفضّلة وقادرة على الاعتراف بحسن نيّة الآخر. ما هو كذبة بالنسبة إلينا قد يكون أحيانًا حقيقة بالنسبة إلى آخرين. لكن مبدأ التسامح يتطلّب، كي لا يحلّ في التهتّك، تثبيت حدود ما لا يمكن التسامح به: مثلًا، المراجعة السياسيّة مقبولة وليس الإلغائيّة، كما يريد شومسكي مثلًا.

على الرغم، أو ربما، بسبب اقتراح التسامح هذا «القابل للإحاطة»، اتُّهِم إيكو بالنسبويّة من قبل الهرميّات الكاثوليكيّة الإيطاليّة. لم يدفعه هذا الأمر إلى تأكيد نسبيّة الحقيقة، بل إلى تأكيد حقيقة النسبيّ. إلى التمييز تاليًا بين الروح الشمولي الذي يقود إلى رعب حروب الأديان وروح المواطنة العالميّة التي تقبل ثقل الاختلافات، وثقل تعدّديّة أصواتها. اهتمّ إيكو، وهو كاثوليكيّ الثقافة، بعالم الأديان الممأسسة،

بـأدب لاهوتها الخيـالي، وبالتديّـن الفرديّ. لا مبـال، أراد مراسـم علمانيّة لدفنـه، كان يراسـل كارديناًلا وفي نيّتـه دراسـة اللغـة البابويّـة المعاصرة. يميّـز، عـلى مـا يبـدو، بـين ديـن «هـذا أو ذاك»، أي ديـن «في المقابـل» المتصلـب، وديـن «هـذا أو ذاك»، أي ديـن الــ «أو» التبـادلي. ولم يكن هذا التمييـز، برأيـه، مسـاهمة غربيّـة في العولمة، إنـما نجده مضمـرًا افتراضيًّا في كلّ معتقد.

ينبغـي، بالنسـبة إلى إيكـو، أن يتجنّـب تمثيـل الثقافـة، مـن حيث هي متعـدّدة الأشـكال في تمظهراتهـا وفي مضامينهـا، اسـتحالة الترجمـة التـي تُسـكِت الحـوار بين المعتقدات. ويجب أن يؤسّـس المبدأ السـيميائيّ القائل بإمكانيّـة الترجمـة بـين أيّـة لغـة، وأي نظـام علامـات، وأي انتـماء مكانيّ. فالترجمـة بالنسـبة إلى مؤلّـف «أن نقـول الـشيء نفسـه تقريبًـا» (١٩٩٠)، هـي ترميـم لغات الانطـلاق ولغات الوصـول أو ابتكار جديـد لها. فهي، مـن القواعـد إلى الخطابـات، ليسـت إيجـاد المعـادل السـيميائيّ، بـل إبراز نقـل المعنـى، إنهـا خيانـة سـعيدة. فيشـكّل اكتشـاف غـير المفكّر فيـه، من خـلال ثقافـة الآخرين، المسـاهمة الأكـبر في التسـامح وفي الشرط المسـبق لتنظيـم جماعـيّ، مـدنيّ مـن دون تماثـل. فالصيغـة التـي اصطلحهـا إيكو تكمـن في أن لغـة أوروبـا لـن تكـون الانكليزيّة بـل الترجمة.

**٤. مفكّر متفائل سياسيًّا**

إن موقـف إيكـو مـن السياسـة هـو موقـف المناضـل الممتنـع. لم يكـن متطرّفًـا ولا جداليًّـا، حتـى في الأزمـان التـي مـارس فيهـا «الحرب السـيميائيّة» في الصحافـة اليوميّـة والأسـبوعيّة (نقـد السـلطة التواصليّـة الخاصّـة بوسـائل الإعـلام الكاثوليكيّـة)، أو التـي شـجب فيهـا زعيـمًا

معاديًا للثقافة أمثال برلوسكوني. لأن دور المفكّر، في الدرجة الأولى، يختلف تمامًا عما هو في فرنسا، حيث يُطلب من الكاتب المشهور مهمّة تنبؤيّة تقضي بإدلاء الرأي في الأحداث الثقافيّة والسياسيّة الجارية. يرى إيكو أن المفكّر رجل شريف، حارس ومصفاة لموسوعة المعارف والقيم. لا يجدي نفعًا بالتالي الطلب منه تغيير العالم وخصوصًا إعلان نهاية الأزمنة. الكتابة بالنسبة إليه تبدّل المستقبل وليس الحاضر. فالمستقبل هو البلد الثاني لمن يكتب ويفكّر، حتى عندما، كما يحدث الآن، يتحوّل التقدّم إلى تقهقر مبدِّلًا العلاقة بالزمن. لم يكن السيميائيّ الكبير، بتحديد منه، مندمجًا بالقيم المكوَّنة، كما أنه لم يكن رؤيويًّا. لم يؤمن بالثورات، حتى الأدبيّة، على الرغم من انضمامه في البداية إلى الطلائع الفنيّة المناضلة، إلى «تسلسل المنطوقات الجماعيّة» الخاصّة بالمجموعة ٦٣. لم يقرأ رؤية يوحنا بوصفها كارثة، بل وحيًا. قدّم الفرصة أو القدر بالتساؤل، بوصفه أخلاقيًّا، حول معنى زعزعة الاستقرار المستمر في اللغات والأحداث. شكى عودة الاسترجاعيّة، «على خطى جمبري» (٢٠٠٦)، للصيغ الاجتماعيّة الثقافيّة التي يحسب أنه قد تمّ تجاوزها، بل تحسّر على الحرب الباردة التي منعت، بتوازن الرعب الذرّي، تكاثر الحروب الساخنة الدمويّة. وبينما بدا له أن التمييز بين اليمين واليسار يضعف، نمّى في كتاباته الظرفيّة الثقة السيميائيّة الأخلاقيّة الخاصّة «بمتفائل صغير الخطوات».

**٥. الجماعيّ والتواصليّ**

كان إيكو بطلًا عالميًّا في الكتابة الصحافيّة. شغل منصب مدير دار نشر كبير (بومبياني، ميلانو). عمل صحافيًّا يدافع عن الكتاب

جهـازًا تاريخيًّـا، وعـن دوره النقـديّ للمجتمـع (مـا بعـد) الصناعـيّ. مسـاهم مواظـب في الصحافـة اليوميّـة والأسـبوعيّة، شـارك في الجـدال حـول دور التلفزيـون (يعـود إليـه المصطلـح الجديـد «التلفزيـون المحـدث») ودور وسـائل الإعـلام الجماهيريّـة. وإذا كان حلـول مجتمـع الصـورة لم يبـدّل سـيميائيّته الثقافيّـة، فالثـورة المعلوماتيّـة أظهـرت أكثر إشـكاليّة بالنسـبة إلى فكـر إيكـو المتأخّـر. إنـه مفكّـر الجماعـيّ الـذي أعطـى، في تقليـد زولا الدريفوسـاردي، إشـارات انزعـاج في التواصـل الرقمـيّ، في سراب وسـائل التواصـل الاجتماعـيّ حيث تغـرق علاقات المقدّمـين والمقرّريـن والأسـاتذة والسياسـيّين غـير المتناسـقة. تصـف إحـدى كتاباتـه الأخـيرة «الأغبيـاء والصحافـة المسـؤولة» (٢٠١٥) و«فائـض الحماقـات الـذي تسـدّ خطـوط الشـبكة»، داعيـةً الصحافيّـين إلى التحليـل النقـديّ لمواقـع الانترنـت. شـكى إيكـو نهاية الـرأي العامّ، الـذي كانـت تفـسّره في السـابق رسـائل الصحافـة وباتـت تدلّكـه اليوم المعلومـة الكـبرى والاسـتقصاءات. شـكى انقطـاع النقاشـات الكـبرى حـول معنـى المجتمـع، وحول المعـاني التـي ينبغـي منحهـا والتوجّهات الواجـب اتخاذهـا. وشـكى سرعـة الاخباريّـة للاتصـالات، التـي لا تسـمح بتفكّر ملائم. وشـكى الشـفافية التـي تضع مصالحنـا ورغباتنا في خدمـة بنـى تأثيريّـة ورقابيّة نفسـيّة أو سياسـيّة. كما شـكى أزمـة الذاكرة وبالتـالي مخاطـر اللاتواصليّـة بينما يتعمّـم الوصول إلى وسـائل الإعلام. وشـكى دوار المعلومـات التافهـة أو الفارغـة. وشـكى أخـيرًا النزعـة الفردانيّـة النرجسـيّة التـي تطلـب الخصوصيّـة وتزعـم رؤيويّة. لم يسـلّم إيكـو في أن صـورة المسـتقبل ستتشـكّل عـلى صـورة «أحمـق القريـة».

نعيش، بالنسبة إلى الباحث في القرون الوسطى، حقبة انتقاليّة باروكيّة محدثة، تُقارَن بسقوط الأمبراطوريّة الرومانيّة، وبالظواهر المهاجرة في أواخر العصور القديمة. في الجذمور الثقافي العائد لمجتمع سائل (برومان)، يجد إيكو أنه من الصعب تحويل التعايش بين أشكال الحياة التي تزداد عمرًا وقلقًا إلى أشكال تجديديّة من التعايش. كان ناقدًا للمجتمع المعلوماتيّ، وللإنتشار الشعيريّ والآني لوسائل التواصل الاجتماعيّ، فوجّه أبحاثه نحو مضادات حيويّة ممكنة. وهو مشروع قطعه موته، ومواصلته قد تطيل حيويّة السيميائيّ الكبير.

**٦. النسابة**

تُبَيّن مقابلة أمبرتو إيكو الكبيرة كيف عرف هذا المعاصر الشهير أن يتعلّم من الماضي، ويعيش الحاضر بصورة مكثّفة، ويؤمن، على الرغم من كلّ شيء، بالمستقبل.

إن ردوده وإجاباته، الغنيّة بالحكم، والحاملة لحقائق مقبولة ولمفارقات، والناقلة لحقائق مهينة، طُبعَت على نيّة حسنة صلبة، تلطّفها الفكاهة. حتى أن أصل اسمه اكتشاف له: «إيكو» قد يكون اختصارًا للقول اللاتيني «هبة من الله» (Ex Coelo Olblatus). كما أن لقبه «منارة الاسكندريّة»، فيذكّر بالأنوار، وبالمكتبة العظيمة وبالمدينة التي ولد فيها.

إن المحاورين النبيهين يحدسون «سرّ إيكو»: «متعة الثقافة الضخمة، حبكة التقلّب الإيطالي والروح الأوروبيّة»، طابع «بارد وحارّ، متجرّد وشغوف». ويبقى للقارئ حكمه. يطيب لي تذكّر هذا المنظّر والكاتب والأستاذ والصحافي والناشر الذي لا يتعب، بكلمات

فيكتـور هوغـو: «قـوة سـائرة» لا تتعـب. صرامـة ضروريّـة لمتابعـة مشـاريعه العديـدة.

عندمـا يكـون الإرث صاعـدًا إلى هـذا الحـدّ، حتـى رفـض الإرث يكـون إرثًـا.

**Nota** **مراجع**


*Michele Cogo, Paolo Fabbri,*

Fenomenologia di Umberto Eco.

Indagine sulle origini d'un mito intellettuale contemporaneo.

Baskerville, Bologna, 2010.

*Paolo Fabbri,*

-" Et la mort n'aura pas d'empire ",

-" Fragments d'un discours sémiotique "

Critique « Hommage à Umberto Eco », 6-7 Juin/Juillet 2016.